المجلَّة الأردنيَّة في

اللُّغة العربيَّة وآدابها

مجلَّة علميَّة عالميَّة محكّمة

المجلد (٣) العدد (٢) ربيع الأول ١٤٢٨هـ / نيسان ٢٠٠٧م

رئيس التحرير
أ.د سمير الدروبي

سكرتير التحرير
سالم سليمان الجعافرة

هيئة التحرير

أ.د. حسين عطوان — أ.د. نهاد الموسى
أ.د. يوسف بكار — أ.د. محمود مغالسة
أ.د. عبدالفتاح الحموز — أ.د. خالد الكركي

الهيئة الاستشارية للمجلة

أ.د عبدالكريم خليفة — أ.د ناصر الدين الأسد
أ.د محمود السمرة — أ.د شاكر الفحام
أ.د أحمد الضبيب — أ.د عبدالملك مرتاض
أ.د أحمد مطلوب — أ.د عبدالسلام المسدي
أ.د محمد بن شريفه — أ.د عبدالعزيز المقالح
أ.د عبدالعزيز المانع — أ.د عبدالقادر الرباعي
أ.د عبدالجليل عبدالمهدي — أ.د صلاح فضل

التدقيق اللغويّ

أ.د. حسام الدين مبيضين (انجليزي)
د. جزاء مصاروة (عربي)

التنضيد والاخراج الضوئيّ
نهلة عبدالكريم يونس

التدقيق الفني
نايف النوايسة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

محتويات العدد

المجلد (٣) العدد (٢) ربيع الأول ١٤٢٨هـ / نيسان ٢٠٠٧م

البحوث باللغة العربية

اسم البحث	اسم الباحث	الصفحات
• الفصل بين الشعر والدين في التراث النقـــدي عند العرب	د. كامل يوسف عتوم	١١-٣٣
• المغايرة بين الضمير ومرجعه في لغة التنزيل	د. حسين عباس الرفايعة	٣٥-٥٢
• المخرج الصوتي المرحل، مفهومه، وأصـــواته، وخصائصه	د. منير تيسير الشطناوي	٥٣-٦٦
• صورة نجد والحجاز في شعر صُرَّدُرّ	د. صالح علي سليم الشتيوي	٦٧-٩٠
• تأنيث المكان وتمكين الأنثى - دراسة في ثنائية المرأة – المدينة في شعر عبدالله رضوان	د. مريم جبر فريحات	٩١-١١٩
• ظاهرة الحمل على الجوار المنفصل في النحو	د. قاسم محمد صالح	١٢١-١٥٠
• صورة المكان في شعر ابن قيس الرقيات	د. يوسف محمود عليمات	١٥١-١٧٧
• تضاريس اللغـــة والدلالـــة في ديوان فاكهـــة الندم للشاعر عبد الناصر صالح	د. إبراهيم نمر موسى	١٧٩-٢٠٣
• خطاب المقدمات وميثاق القراءة في شـــروح حسن كامل الصيرفي على الشعر الجاهلي	د. محمد موسى العبسي	٢٠٥-٢٢٨
• شعر غزوات النَّبيﷺ - دراسة تحليليَّة	د. محمد بن هادي المباركي	٢٢٩-٢٦٥

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المغايرة بين الضمير ومرجعه في لغة التنـــزيل

د. حسين عباس الرفايعة *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٦/٦/٢٥ تاريخ القبول: ٢٠٠٦/١١/٤

ملخّص

يرمي هذا البحث إلى الكشف عن ظاهرة المغايرة بين الضمير ومرجعه في لغة التنـــزيل على غير ما ذهب إليه النُّحـــاة من وجوب المطابقة بين الضمير ومرجعه؛ لذا نهض هذا البحث على تعريف المغايرة لغة واصطلاحاً، وبيـــان شـــرطها، وداعي المصير إليها ، إذْ أُديرت على المعنى الذي استدعى تلك المغايرة، مع بسط القول في أنظار المفسّرين واللغويّين، وجمع أشتات هذه الظاهرة ، وتقسيم مسائلها التي جَرَت في مدار المغايرة في العَدَد (إفراداً، وتثنيّـــة، وجمعـــاً) ، و(التـــذكير والتأنيث) ، وخلص البحث إلى أنّ هذه المغايرة في لغة التنـــزيل لم تخرج على طريق العرب في التعبير ، وأنّها أمر سمـــاعيّ لا يجوز لنا أن نقيس عليه .

Abstract

Disagreement between Pronouns and their References the Language of the Holy Quran

Hussein A. Rafaiyah, Ph. D.

This study sheds light on the disagreement between pronouns and their references in the Language of the Holy Quran . This phenomenon, goes against the Arab Syntacticians' semi consensus on the full agreement between pronouns and their references in this variety. This study has thoroughly investigated several aspects of this phenomenon including its definition, conditions, Causes, and contextual uses. Furthermore, the study has surveyed the previous literature on this domain and it has also classified its different aspects related to number and gender .

The findings show that disagreement between pronouns and their references goes in accordance with the rules of the language of the Holy Quran, and that this disagreement is, eventually, an acoustic aspect that should not be considered in the grammar of the language of the Holy Quran.

* قسم اللغة العربية، جامعة الحسين بن طلال.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ممّا عَنَّ للباحث في أثناء قراءة لغة التنـــزيل، ومطالعة كتب التفسير أَنّ ثَمّةَ ظاهرة تلفـــت الانتبـــاه، وتسترعي النَظَر، وتستحق الوقوف عليها بالبحث والاستقصاء، إذ تتمثّل هذه الظاهرة في تلك المغايرة بين الضمير ومرجعه، ممّا جاء مخالفاً للنَظَر النَّحوي الذي ذهب إلى وجوب المطابقة بين الضمير ومرجعه إفراداً، وتثنية، وجمعاً، وتذكيراً، وتأنيثاً، وهذه المخالفة ما ينبغي أن تكون عبثاً، إذ لا بُدَّ من التـــوفّر علـــى داعٍ تقتضيه، وإن كان الأمر لا يخلو من حَرَج إزاء لغة التنـــزيل؛ لأَنَّ خَطَأ التحليل في لغة التنـــزيل ليس أمراً هيّناً، ولكنّ الباحث يَرْكن إلى أنّ هذه المغايرة (المخالفة) في لغة التنـــزيل تتّفق مع ما عليه لغة العرب .

المغايرة لغة واصطلاحاً

يفيد المعجم اللغويّ أنّ المغايرة تعني : المعارضة والاختلاف[١]، وأَنَّها مصدر قياسي للفعـــل (غَـــايَر) الذي يفيد مشاركة بين شيئين، وأما في الاصطلاح فلم أجدْ – في حدود ما اطّلعت – مَنْ وَضَع لها حـــدّاً في هذا المدار، ويمكن القول : إنّها عدول عن المطابقة بين الضمير ومرجعه، سواءٌ أكان ذلك في مـــسألة العدد إفراداً، وتثنية، وجمعاً أم في مسألة الجنس تذكيراً وتأنيثاً .

ويبدو شرط المغايرة واضحاً، إذ لا بُدَّ من التوفّر على شيئين لوقوعها ، وهما الضمير ومرجعه (مفسّره)، فالأصل التوافق بين الضمير ومرجعه على حسب ما نَصَّ عليه أصحاب النَظَـــر النَّحـــويّ، إذ ذهبـــوا إلى وجوب المطابقة بين الضمير ومرجعه " وينبغي أن يكون هذا الضمير بِعَدَد ما يرجع إليـــه، ويرجـــع إلى الواحد واحدٌ، وللاثنين اثنان، وإلى الجمع جمع .... وينبغي أن يكون هذا الضمير مطابقاً لما يرجع إليـــه في التذكير والتأنيث، فيرجع إلى المؤنثة ضمير مؤنث، وإلى الاثنين ضميران مؤنثان، وإلى الجمع ضمير مؤنّـــث مجموع[٢].

غير أنّنا نطالع نَظَراً مغايراً في مسألة وجوب المطابقة عند داود عبده، إذ ارتأى أَنّ النّحاة قد ذهبـــوا في هذه المسألة مذهباً شططا؛ لأَنّ مسألة تفكيك الضمائر مع مرجعها أمر جائز، ولو كان واجب المطابقـــة لخفّت إليه سائر اللغات" وقد فات النُّحاة أَنَّ ظاهرة المطابقة في اللغات لا تفسير لها، بـــل مـــن الممكـــن الاستغناء عنها .... ولو كانت المطابقة ضروريّة لوجب أن تكون في جميع اللغات "[٣] .

ولسنا في معرض مناقشة هذا النظر اللغويّ؛ لأَنّ لكلِّ لغة خصّيصى لا تتوفر على غيرها سواء أكـــان

(١) الزَّبيدي، محمد مرتضى (١٢٠٥هـــ / ١٨٠٨م) **تاج العروس**، د . ت، مادة : (غَيَر)، ج ٣ /٤٦٠ .

(٢) الثمانيني، عمر بن ثابت (٤٤٢هـــ / ١٠٤٥م) **الفوائد والقواعد**، تحقيق : عبد الوهاب محمود الكحلة، مؤسسة الرسالة ، بـــيروت، ط١، ٢٠٠٢، ٤٠٧ . وانظر : السيوطي، جلال الدين (٩١١هـــ/١٤٥م) **الأشباه والنظائر**، تحقيق : عبد العال سالم مكرم، مؤســـسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ج٣/ ٧٧ .

(٣) عبده، داود (معاصر) **أبحاث في اللغة**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٣، ص٧٤ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك في الأصوات، أم الاشتقاق، أم التركيب، ونعرف أَنْ ستفتح فوضى كبيرة تُصَاب بها اللغة نتيجة هذا التفكيك للضمائر ممّا يدفع إلى القول : إنّ علماء العربيّة كانوا على حقّ في ضبط المسألة بوجوب المطابقة.

و لم يفت النُّحاة أن ينبّهوا – في أثناء كلامهم على الضمير – على الضمير الذي يحتاج إلى مرجع (مفسّر) وهذا المرجع هو الاسم الظاهر في الكلام إن كان متقدّماً – وهو الأصل - أو متأخّراً، وقد أُحِلّ هذا الضمير في مكانه لئلا يُعَاد مرّة ثانية بقصد الاختصار وعدم التكرار " فأمّا المضمرات فهي كناية تفتقر إلى ما ترجع إليه، والمضمر يقع في الكلام على ثلاثة أقسام أكثرها أن يرجع إلى اسم قد تقدّم ذكره، نحو: " زيد لقيته ، وعمرو مررت به"(١).

وتكلّم النُّحاة على ضمير الغائب بخصوص الاحتياج إلى مرجع؛ لأنّ ضمير المتكلّم والمخاطب يعرفان بالحضور، قال ابن هشام : " وأقول : لا بُدّ للضمير من مفسّر يبين ما يراد به، فإنْ كان لمتكلّم أو مخاطب، فمفسّره حضور مَنْ هُوَ له، وإنْ كان لغائب، فمفسّره نوعان : لفظ وغيره "(٢) .

ومع ما ذهب إليه النُّحاة من وجوب المطابقة بين الضمير ومرجعه إلاّ أَنَّ ثَمّةَ شواهد تطالعنا في لغة التنزيل برزت فيها المغايرة بين الضمير ومرجعه، ولا يمكن عَدّ ذلك من قبيل الخطأ أو التوهم لمجرد مخالفة النظر النّحويّ، وإنْ بدا ذلك عند بعض القائلين والعابثين على نحو ما طالعنا به ابن قتيبة في كتابه (تأويل مشكل القرآن) ، إذ ذهب إلى التنبيه على هذه المسألة في أثناء ردّه على بعض العابثين الذين ذهبوا إلى أنّ في لغة التنزيل مشكلاً " إنّما يَعْرِف فَضْل القرآن مَنْ كَثُر نظرُه، واتّسع علمه، وَفَهِم مذاهب العَرَب، وافتنانها في الأساليب، وما خصَّ الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنّه ليس في جميع الأمم أُمّة أُوتِيَت العارضة والبيان واتّساع المجال ما أُوتِيَتْهُ العرب خصيصى من الله، لما أرهصه في الرسول، وأراده من إقامة الدليل على نبوّته بالكتاب، فجعله عَلَمه، كما جعل عَلَم كلّ نبيّ من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه "(٣) .

وذهب ابن كمال باشا إلى أنّ المغايرة بين الضمير ومرجعه تُعَدُّ قبيحة إنْ أَدّى تفكيك الضمائر مع مراجعها إلى لَبْس؛ لأنّ غاية اللغة الإفهام " والحقُّ أَنّ التفكيك الذي يقع في الضمائر إنْ أدّى إلى الالتباس

(١) الثمانيني ، **الفوائد والقواعد**، ص٣٩٦، وانظر : ابن هشام جمال الدين(٧٦١هـ / ١٣٦٤م) **شرح شذور الذهب**، تحقيق : محمّد محيي الدين عبد الحميد، د.ت، ١٣٦، وانظر السيوطي، **الأشباه والنظائر** : ٣/٧٧ .

(٢) ابن هشام، **شرح شذور الذهب** : ١٣٥ (قُدّم ؛ لأنّه أوضح عبارة) . وانظر : سيبويه، عمرو بن عثمان (١٨٠هـ/٧٨٣م) **الكتاب**، تحقيق : عبد السلام محمد هارون – عالم الكتب- ط٣، ١٩٨٣، ج٢/٣٦٤ . والصبّان ، محمد بن علي (١٢٠٦هـ/١٨٠٩م) **حاشية الصبّان**، تحقيق : إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط١، ١٩٩٧، ج١/١٦٠،

(٣) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ / ٨٧٩م) **تأويل مشكل القرآن**، دراسة عمر محمد سعيد عبد العزيز، مراجعة : عبد الصبور شاهين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٩،ص٥٠ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في الكلام، والاشتباه في المرام يكون مخلاً للفصاحة فلا بُدَّ من صون الكلام الفصيح عنه، وإن لم يكن مؤدياً إلى ذلك لانسياق الفهم باقتضاء الكلام، ومساعدة المقام إلى المعاني المرادة من الضمائر المنتشرة بسبب التفكيك الواقع فيها "[١].

لذا كان النُّحاة على حقّ في ضبط مسألة الضمير ومرجعه؛ لأنّ تفكيك الضمائر على إطلاقه يؤدي إلى الفوضى اللغويّة، فأمر التفكيك مرتبط بما يسوّغه، وعلى هذا السَّمت فإنّ المتلمّس لظاهرة المغايرة بين الضمير ومرجعه في لغة التنـــزيل يرى أنّها قد أُديرت على الحمل على المعنى عند النُّحاة والمفسرين ، ويطالعنا ابن كمال باشا بهذا المسوِّغ في قوله : " اعلم أَنَّ اعتبار المعنى في تذكير الضمير وتأنيثه شائع ذائع بل في التذكير والتأنيث مطلقاً "[٢]. ويزاد على هذا القول أنّ مسألة المغايرة في العَدَد خاضعة للحمل على المعنى، على نحو ما تطالعنا به لغة التنـــزيل، فممّا دار في فلك مسألة العَدَد قوله تعالى: ﴿ وداود وسليمان إذْ يحكمان في الحَرْث إذ نفشت فيه غنم القوم وكُنّا لحكمهم شاهدين﴾[٣] فجاء المرجع مثنى (داود وسليمان) وعاد عليه ضمير مجموع في قوله (لحكمهم)؛ لأنَّ إرادة المعنى دعا إلى هذه المخالفة بين الضمير ومرجعه، "إذ المعنى المراد أنه أرادهما والمتحاكمين إليهما"[٤] وثمّة علّة أُخرى ، وهي أَنَّ الله سبحانه وتعالى أَراد أَنْ يشْعر (بالصيغة لحكمهم) أَنّ حكمهما من الصّحة بحيثُ يَعْدل حكم الجماعة، وأَنّ الأصل في الحكم أَنْ يصدر عن "جماعة " .

وممّا جاء في مسألة العَدَد، إذ أُفرد فيه المرجع، وجمع الضمير العائد عليه قوله تعالى : ﴿ ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات ﴾[٥]، فالمرجع المتقدّم (السماء) جاء مفرداً ومؤنثا، ولكن الضمير العائد في (فسّواهنّ) جاء مجموعاً، فهذه المغايرة تحمل على اتّحاد المعنى.

إذ يطالعنا الأخفش في هذا المدار بقوله : " إنّما ذَكَر سماءً واحدة فهذا لأَنّ ذِكْر السماء قد دلَّ عليهنّ كلِّهنّ "[٦]، ومثل هذا ما ذهب إليه الفرّاء من أنّ السماء في معنى جمع[٧]، وزاد هذه المسألة بياناً الزمخشري، إذ ما ذهب إليه أنّ السماء قد حُمِلت على معنى الجهات؛ لذا جاء الضمير مجموعاً، فوحّد

(١) ابن كمال باشا (٩٤٠هـ/١٥٤٣م) **رسائل ابن كمال**، تحقيق : ناصر سعد الرشيد، النادي الأدبي بالرياض، ١٩٨٠، ص٨١ .
(٢) ابن كمال باشا، **رسائل ابن كمال** ، ص٨٨ .
(٣) الأنبياء : (٧٨) .
(٤) الزمخشري : محمود بن عمر (٥٣٨هـ/١١٤١م) **الكشاف**، ت : عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان، ط٢، ج١٢٩/٣ .
(٥) **البقرة** : (٢٩) .
(٦) الأخفش ، سعيد بن مسعدة (٢١٥هـ/٨١٨م) **معاني القرآن**، تحقيق : فائز فارس، المطبعة العصريّة ، الكويت، ط١، ١٩٧٩، ج٥٤/١.
(٧) الفرّاء، يحيى بن زياد (٢٠٧هـ/٨١٠م): **معاني القرآن**، تحقيق : محمّد علي النجار ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان، ط٢، ١٩٨٠، ج٢٥/١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللفظ لاتّحاد المعنى[١]، فلفظ السماء هنا معناها (سبع سماوات)، إذ دلّ على ذلك ما جاء بعدها ﴿فسوّاهنّ سبع سموات﴾ والمتأخّر كثيراً ما يوضّح المتقدّم، وممّا دار من مسائل التذكير والتأنيث في باب المغايرة المحمولة على المعنى قوله تعالى : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ﴾[٢]، إذْ وحّد الضمير وذكّره في (اضربوه) وأعاده على مرجعه المفرد المؤنّث (النفس) الوارد في الآية السابقة ﴿ وإذا قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ [٣]

واتفق رأي المفسّرين على أنّ مردّ المغايرة هنا يخضع لمسألة المعنى، فقد حُمِلَ المرجع (النفس) على معنى (الإنسان)، قال صاحب مجاز القرآن : " الهاء تعود إلى مؤنّث وهو (النفس) حملاً على معنى التذكير (إنسان)" [٤] وحمل بعض المفسّرين المرجع على معنى (شخص) أو (قتيل) [٥] . وهذا المسّوغ كثير في لغة التنزيل .

قال تعالى : ﴿ فشاربون عليه من الحميم ﴾[٦]، فأفرد الضمير وذكّره في (عليه) وهو عائد على مرجعه المجموع المؤنث (الشجر) المذكور في الآية السابقة ﴿ لآكلون من شجر من زقّوم فمالئون منها البطون ﴾ [٧]، فطابق بين الضمير ومرجعه في قوله : (منها) العائد على (الشجر)، فهنا حمل على اللفظ، بينما حَمَل على المعنى في المغايرة الحادثة بين الضمير في (عليه) ومرجعه (الشجر) إلى هذا ذهب الأخفش في نصّه " فشاربون عليه؛ لأنّ الشجر يؤنث ويذكّر، وأُنّث لأنه حمله على الشجرة، لأنّ الشجرة قد تدلّ على الجميع .

تقول العرب : نبتت قَبلَنا شجرة مرّة، وبقلة رديئة، وهم يعنون الجميع[٨] وتطابق هذا القول مع قول الفرّاء: " إنْ شئتَ كان على الشجر، وإن شئت فَعَلى الأكْل"[٩] وقد حرّر هذه المسألة الزمخشري بالبيان والتوضيح " وأنّث ضمير الشجر على المعنى، وذكّره على اللفظ في قوله : منها وعليه، وإنّما ذكّر

(١) الزمخشري، **الكشاف**، ١/١٥٢، وانظر : ابن عطية، عبد الحق (٥٤٢هـ/ ١١٥٤م) **المحرّر الوجيز**، تحقيق : الرحالي الفاروق وزملائه، الدوحة، ١٩٧٧، ١/٢٢٥. والعكبري ، أبو البقاء (٦١٦هـ/١٢١٩م) **التبيان في إعراب القرآن**، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ٢/١٢٧١.

(٢) **البقرة** : (٧٣) .

(٣) **البقرة** : (٧٢) .

(٤) أبو عبيدة ، معمر بن المثنى (٢١٠هـ - ٨١٣ م) **مجاز القرآن** ، تحقيق : محمد فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ١/٤٥ .

(٥) الزمخشري : **الكشاف** ، ١/١٨١ .

(٦) **الواقعة** : (٥٤) .

(٧) **الواقعة** : (٥٢،٥٣).

(٨) الأخفش، **معاني القرآن** ، ٢/٤٩٢ .

(٩) الفرّاء ، **معاني القرآن**، ٣/١٢٧، وانظر : ابن عطية، **المحرّر الوجيز**، ٤/٢٥٦، وابن كمال باشا، **رسائل ابن كمال** ، ٨٨ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الثاني على تأويل الزقوم "[١] وسيبسط القول مفصلاً لهذا المسّوغ في أثناء عَرْض مسائل هـــذه الظـــاهرة الآتية:-

مسائل هذه الظاهرة

يبدو لي أنّ تناول ظاهرة المغايرة ليس أمراً قائماً على الدراسة الإحصائية بقدر ما هو إبراز لهذه الظاهرة المتفاوتة في مسائلها، إذ تظهر جليّة في باب العَدَد (إفراداً، وتثنية، وجمعاً) بينما تقل درجتها في مـــسألة التذكير والتأنيث؛ لذا ارتأى الباحث أن يقسّم مسائل هذه الظاهرة على حسب النظر إلى المرجـــع؛ لأنّـــه أصلٌ في التقديم؛ وقد رَتّبْتُ مسائل العدد أولاً، ثم عقّبتُ بمسائل التذكير والتأنيث .

١ - المرجعُ مفردٌ وضميره مثنّى

تبدو هذه المسألة قليلة الدوران في لغة التنـــزيل ، إذ نطالع آية واحدة في لغة التنـــزيل في قوله تعالى : ﴿ فلمّا بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سَرَبا ﴾[٢] فالمرجع مفرد هـــو (الفتى)، وكان النسيان منه دون موسى، ولكنّ الضمير جاء مثنّى في قوله : (نَسِيا) ، وتعود علّة هذا العدول بين الضمير ومرجعه على اتحاد المعنى، إذْ عُدَّ موسى ﷺ وفتاه شيئاً واحداً .

ويقوّي هذا ما ذهب إليه الفرّاء من أنّ إسناد الفعل إلى الاثنين (موسى ﷺ والفتى) جـــاء لتحقيـــق الحمل على المعنى " وإنّما نسيه يوشع فأضافه إليهما، كما قال : ﴿ يخرج منهما اللؤلـــؤ والمرجـــان ﴾[٣]، وإنّما يخرج من الملح دون العذب"[٤] ، وقد اتفق نظر المفسّرين في هذه المسألة على القول باتحاد المعنى[٥]. وأمّا معكوس هذه المسألة من مجيء المرجع مثنى والضمير موحّداً فقد كثر دورانه في لغة التنـــزيل .

٢ . المرجع مثنّى والضمير مفرد

اتفق رأي النحويّين في هذه المسألة على أن يتقدّم شيئان ويُعاد الضمير على أحدهما، والغالب أن يعود الضمير على الثاني منهما [٦]، فالمرجعان المتعاطفان بالواو يعود الضمير إلى الأقرب منهما بحكم المجاورة "

(١) الزمخشري ، **الكشاف**، ٤٦٢/٤

(٢) **الكهف** : (٦١) .

(٣) **الرحمن** : (٢٢) .

(٤) الفرّاء ، **معاني القرآن** : ١٥٤/٢ .

(٥) ابن عطيّة ، **المحرّر الوجيز** : ٣٥١/٩، والزركشي، محمد بن عبد الله، (٧٩٤هـــ/١٣٩٧م) ، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق : محمـــد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨،ج٣٢/٤ . والسمين الحلبي، أحمد بن يوسف (٧٥٠هـــ /١٣٥٣م)، **الـــدر المـــصون**، تحقيق : أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٦، ٥٢٠/٧. والسيوطي، جلال الدين (٩١١هـــ/١٥١٤م)، **الإتقان في علوم القرآن**، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٨٣/٢ .

(٦) الزركشي : **البرهان في علوم القرآن**، ج٣٠/٤، وانظر: السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ٢٨٣/٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والعرب تقتصر على أحد هذين الاسمين، فأكثره الذي يلي الفعل" [١].

ويبدو لي أنّها مسألة خاضعة لاعتبار المعنى دون غيره؛ لأنّ (الواو) تفيد مطلق الجمع دون مراعاة للترتيب، فالضمير قد يعود على المعطوف أو على المعطوف عليه، يعزّز هذا ما ذهب إليه سيبويه " فالواو تجمع هذه الأشياء على هذه المعاني، فإذا سمعت المتكّلم يتكلّم بهذا أجبته على أيّها شئت ؛ لأنّها قد جمعت هذه الأشياء "[٢] وإلى هذا ذهب الأخفش من أنّها مسألة جائزة في عَوْد الضمير على الأوّل أو الثاني على حسب متطلّب المعنى، وإن كان القياس أن يعود على كليهما " وأقيس هذا ما كان بالواو أن يحمل عليهما جميعاً " [٣].

وممّا جاء على هذا السَّمت من لغة التنـــزيل قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والـــصّلاة وإنّهـــا لكبيرة إلاّ على الخاشعين ﴾[٤] فقد تقدّم اسمان متعاطفان (الصبر والصلاة) وهما المرجـــع، ولكنّ الضمير العائد قد أُفرد وأُنث في قوله : (وإنّها) إذ عاد إلى أقرب مذكور (الصّلاة) ومن المفسّرين من أعاده إلى معنى الاستعانة [٥] بدليل الفعل " واستعينوا "، وأرى أنّها مسألة محمولة على المعنى؛ إذ عاد الضمير علـــى الصلاة دون الصبر؛ لأنّ مدار الحديث في الآيات السابقة جـــرى في ركاب الصلاة . قال تعالى : ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الرّاكعين ﴾ [٦].

ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوّا عنه وأنتم تسمعون ﴾ [٧].

فقد تقدّم اسمان متعاطفان بالواو وهما المرجع (الله ورسوله)، إلاّ أنّ الضمير العائد إليهما جـــاء مفرداً ومذكراً في قوله (عنه) وكان حقّ المطابقة بين الضمير ومرجعـــه أن يكون (عنهما) ، ولكـــنّ اتّحاد المعنى بين المعطوف والمعطوف عليه آذن بإفراد الضمير، فالطاعة للرسول هي طاعة للّه، ويقوّي هذا قول العكبريّ : " لأنّ أمر الرسول تابع لأمر الله تعالى، ولأنّ الرســـول قائم مقام الله بدليل قولـــه[٨]: ﴿إنّ الذين يبايعونك إنّما يبايعون الله ﴾[٩]ونصّ الزمخشري على أنّ المعطوف والمعطوف عليه في هذه الآية شيء واحد لذا وحّد الضمير كقولك : [١٠] الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان .

---

(١) أبو عبيدة، **مجاز القرآن** ، ٣٩/١ .
(٢) سيبويه، **الكتاب**، ٤٣٨/١ .
(٣) الأخفش، **معاني القرآن**، ٨١/١ .
(٤) **البقرة** : (٤٥) .
(٥) ابن عطية ، **المحرّر** ٢٧٧/١، وانظر العكبري، **التبيان**، ٥٩/١ .
(٦) **البقرة** : (١٤٣) .
(٧) **الأنفال** : (٢٠).
(٨) العكبريّ، **التبيان**، ٦٤٩/٢، وانظر : الفرّاء ، **معاني القرآن**، ٤٣٤/١، والزركشي ، **البرهان** ٣١/٤.
(٩) **الفتح** : (١٠)
(١٠) الزمخشري، **الكشاف**، ١٩٨/٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وارتأى فاضل السامرائي [١]أنّ عود الضمير جاء على أقرب مذكور وهو الرســـول (ﷺ) وكأنّـــه المخصوص بالكلام دون المعطوف عليه .

وممّا تقدّم فيه المرجعان المتعاطفان، وأفرد الضمير الراجع إليهما قوله تعالى : ﴿ والذين يكترون الـــذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم ﴾ [٢] ، فأفـــرد الضمير فـــي (ينفقونها) العائـــد على المرجع المثنى (الذهب والفضة) ولم يقل : (ينفقونهما)، وقد جدَّ المفسّرون في طَلَب علّـــة هـــذه المغايرة، فنصَّ أبو عبيدة على أنّ أمر المغايرة في هذه الآية لا يعدو (الاستغناء) ، فقد استغني عـــن تثنيـــة الضمير مع مرجعه، لأنّ السامع يدرك، أنّ ما حدث لأحدهما يحدث للآخر وكأنّهما في المعنى شيء واحد ولم يقل : " ينفقونهما، والعرب تفعل ذلك إذا أشركوا بين اثنين فقصروا فخبّروا عن أحـــدهما اســـتغناء بذلك وتحقيقاً لمعرفة السامع بأنّ الآخر قد شاركه ودخل معه في ذلك الخبر"[٣]. فأيّهما يذكر يدلّ علـــى صاحبه؛ لأنّ المعنى في المرجعين جاء متّحداً، ومن المفسّرين والنّحاة من وَجّه هذا العدول بحمل الـــذهب والفضة على معنى (الكنوز) [٤] لذلك قال : ينفقونها، وهذا الأسلوب التعبيريّ لـــيس بـــدْعاً في لغـــة التنـــزيل، ولكنّه يتفق مع ما عليه لغة العرب، إذ لم يخرج على طريق العرب في التعبير، على نحو ما نطالعه في قول حسّان بن ثابت[٥] :

إنّ شَرْخ الـــشباب والـــشعر الأســـود ... مـــا لم يعـــاصَ كـــان جنونـــا

فجاء المرجع (الشباب والشعر الأسود) ثنائياً ، وأُفـــرد الضمير في (يُعـــاصَ) ولـــم يقل (يعاصيا) ، ومثله قول جرير [٦] :

ما كـــان حَيْنـــك والـــشقاء ينتـــهي ... حـــتى أزورك في مغـــار مُحْـــصَدِ

فأعاد الضمير المفرد في (ينتهي) على مرجعه المثنّى (حينك والشقاء)، وكان حقّ المطابقة أن يقول : (ينتهيان) ولكنّ اتّحاد المعنى في المرجع جعله شيئاً واحداً، فاقتضى ذلك إفراد الضمير .

(١) السامرائي، فاضل (معاصر) **معاني النحو** ، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، الأردن ، ط١، ٢٠٠٠، ج١/٦٣ .
(٢) **التوبة** : (٣٤).
(٣) أبو عبيدة، **مجاز القرآن** ، ١/٢٥٧، وانظر: الزركشي، **البرهان**، ٤/٣١.
(٤) الفرّاء ، **معاني القرآن**، ١/٤٣٤، وانظر : ابن عطية، **المحرّر الوجيز**، ٨/٢٥٣، والزركشي، **البرهـــان**، ٤/٣١، والعكـــبريّ، **التبيـــان**، ٢/٦٤١.
(٥) الأنصاريّ، حسان بن ثابت (٥٤هـــ/٦٧٤م) **ديوان حسّان** ، تحقيق : يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص٤١٠.
(٦) اليربوعي، جرير بن عطيّة (١١٤هـــ/٧١٧م) **ديوان جرير**، تحقيق : نعمان محمد أمين، دار المعـــارف، ط٣، ص٨٤٤. وانظـــر : أبـــا عبيدة، **مجاز القرآن**، ج١/٢٥٧ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويختلف أمر التعاطف بـ (أو) عن التعاطف بـ (الواو) من أنّ (أو) يُخبَر فيها عن أحد المتعاطفين، إذ لا يجوز الجمع فيها كما هو الحال في (الواو) " ومن ذلك قولك : مررت برجل أو امرأة (فأو) أشركت بينهما في الخبر، وأثبت المرور لأحدهما دون الآخر وسوّت بينهما في الدَّعوى"(١)، وهذا ما قال مثله الأخفش، يقول: " وليس هذا مثل (أو) لأنَّ (أو) إنّما يخبر فيه عن أحد الشيئين، وأنت في (أو) بالخيار، إن شئت جعلت الكلام على الأوّل وإن شئت على الآخر، وأن تحمله على الآخر أقيس"(٢)، لذا فإنّ إفراد الضمير العائد على المرجع المثنّى في مسألة العطف بـ (الواو) يُعَدُّ واجباً على خلاف التعاطف بـ (أو)، إذ يُعَدُّ عَوْدُ الضمير واجب المطابقة، وأَنّ إفراد الضمير يُعَدُّ جائزاً في حدود ما سُمِع عن العَرَب، ونقرأ في هذا المدار قوله تعالى:﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها وتركوك قائماً﴾(٣). فأنّث الضمير، ووحّده في قوله : (إليها)، وهو عائد على مرجعه المثنّى (التجارة واللهو)، فأمر هذه المغايرة يقتضيه المعنى على نحو ما نطالعه في أسباب نزول هذه الآية، إذ تفيدنا كتب التفسير أنّ التجارة كانت سبباً في الانصراف عن الصلاة، " فقد خطب الرسول – صلى الله عليه وسلم - يوم الجمعة، فقدم دِحْية الكلبيّ بتجارة من الشام، فيها ما يحتاج إليه النّاس ، فضرب بالطبل ليؤذنَ النّاسَ بقدومه، فخرج جميع الناس إليه إلاّ ثمانية نفرٍ"(٤).

ويبدو لي أنّ كليهما يدلّ على الآخر، وإن كانت التجارة هي الأبرز، فاتّحاد المعنى في المرجع آذن بتوحيد الضمير، ويعزّز هذا القول ما ذكره صاحب التبيان " إنّما أنّث الضمير؛ لأنّه أعاده على التجارة ، لأنّها كانت أهم عندهم والله أعلم " (٥) ، وجرى في المدار نفسه قول الزمخشري : " فإنْ قلت : كيف قال: (إليها) وقد ذكر شيئين ؟ قلت : تقديره إذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهواً انفضوا إليه، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه "(٦) .

وممّا جرى في هذا المدار قوله تعالى : ﴿ وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أُخت فلكلّ واحد منهما السدس ﴾ (٧). فتقدّم المرجع المثنى (رجل أو امرأة)، أحدهما مذكّر مفرد، والآخر مفرد

(١) سيبويه ، **الكتاب**، ٤٣٨/١ . وانظر : الثمانيني ، **الفوائد والقواعد** ، ٣٨٠، وابن عصفور علي بن مؤمن(٦٦٩هـ/١٢٧٢م) ، **المقرّب** ، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوّض، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١٩٩٨. ٣٠٦، وابن هشام، **مغني اللبيب**، ٩٥.

(٢) الأخفش ، **معاني القرآن**، ٨١/١ . وانظر : ابن السّراج محمد بن سهل (٣١٦هـ/٩١٩م)، **الأصول في النّحو**، تحقيق: عبد الحسن الفتلي ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٤ ، ١٩٩٩، ج٢١٣/٢.

(٣) **الجمعة** : (١١).

(٤) الفرّاء ، **معاني القرآن**، ١٥٧/٣، وانظر : ابن عطيّة، **المحرّر الوجيز** ، ٤٤٩/٤، والسامرائي ، فاضل، **معاني النّحو** ، ٦٣/١ .

(٥) العكبريّ، **التبيان**، ١٢٢٣/٢ .

(٦) الزمخشري، **الكشاف**، ٥٣٩/٤

(٧) **النساء** : (١٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مؤنّث وجاءا متعاطفين بـــ (أو)، ولا يجوز التطابق ثمّة بين المرجع والضمير عند التعاطف بـــ (أو)؛ ولذا جاء الضمير مفرداً في قوله : (وله)، وقد أُفرد الضمير باعتبار اتّحاد المعنى في المرجع، وكأنّ المتعاطفين بـــ (أو) شيء واحد ، قال الفرّاء : " وقوله : وله أخ أو أخت و لم يقل : ولهما، وإن شئت ذكرتهمـــا فيـــه جميعاً، تقول في الكلام : من كان له أخ أو أخت فليصله، تذهب إلى الأخ، وليصلها تذهب إلى الأخت، وإن قلت: فيصلهما فذلك جائز"(١).

وقد بسط العكبري القول في هذه المسألة، إذ ذهب إلى بيان علّة إفراد الضمير العائد على المرجـــع المثنى، من أنّ عَوْده كان على المرجع المذّكر دون المؤنّث ؛ لأنّ الكلام بدأ بالمرجع المذكّر ، وكأنّه يشير إلى مسألة التغليب في عود الضمير على الرجل دون المرأة، لأنّ المذكّر أخفّ من المؤنّث ، ثم ضمّ تعليلاً آخـــر يدور في فلك الحمل على المعنى، فالرجل والمرأة يمثّلان المرجع للضمير المتأخر، وهما محمولان على معـــنى (الميّت أو الموروث) لذا وحّد الضمير وذكّره قال : " إن قيل قد تقدّم ذِكْر الرجل على المرأة ، فَلِم أفرد الضمير وذكّره ؟ قيل : أمّا إفراده فلأنّ (أو) لأحد الشيئين وقد قال أو امرأة، فأفرد الضمير لذلك، وأمّا تذكيره ففيه ثلاثة أوجه : أحدهما يرجع إلى الرجل لأنّه مذكّر مبدوء به ، والثاني أن يرجـــع إلى أحـــدهما ولفظ (أحد) مذكّر ، والثالث أنه راجع إلى الميّت أو الموروث لتقدّم ما يدل عليه "(٢) ويمكن القـــول: إنّ الرجل هو مناط القوامة والتكليف ؛ لذا عادَ الضمير عليه. وإنّي لا أميل إلى الرأي الثاني الـــــذي ساقه العكبريّ من الحمل علـــى معنى (أحد)؛ لأنّ هذا اللفظ يذكّر ويؤنّث، وعلى التأنيث جاء قوله تعـــالى: ﴿يا نساء النّبي لستنّ كأحد من النّساء﴾(٣). وقد نُكّر لفظ (أحد) لعموميته - كما يبدو لي – إذْ لم يرد لفظ (إحدى) في القرآن الكريم إلاّ مضافاً لمعرفة، فأمهات المؤمنين لهنّ اختصاص ومكان لا يشاركهنّ فيه أحدٌ من الذكور أو الإناث .

ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يكسب خطيئة أو إثماً ثُمّ يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبينـــاً ﴾(٤) فقد ذكر الضمير (به) المسبوق باسمين متعاطفين بـــ (أو) وهما (الخطيئة والإثم)، وجاء عَوْد الضمير (به) على أقرب مذكـــور (إثماً)، جاء في معانـــي القـــرآن للفـــرّاء " ويقال : كيف قال (به) وقد ذكر الخطيئة والإثم ؟ وذلك جائز أن يُكْنَى عن الفعلين ولو كثر لجاز الكناية عنه بالتوحيد ؛ لأنّ الأفاعيل يقع عليها فعل واحد، فلذلك جاز، فإن شئت ضممت الخطيئة والإثم فجعلته كالواحد، وإن شئت جعلت

(١) الفرّاء ، **معاني القرآن** ، ١/٢٥٨ .
(٢) العكبري ، **التبيان**، ١/٣٣٦ . وانظر : ابن عطية ، **المحرر الوجيز**، ٣/٥٢٢ .
(٣) **الأحزاب** : (٣٢) .
(٤) **النساء** : (١١٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الباء للإثم خاصة "[١]. فهي مسألة محمولة على اتحاد المعنى في المرجع؛ لأنّ الخطيئة في حكم الإثم[٢] فأصبحا شيئاً واحداً ؛ لذا وحّد الضمير، ويبدو لي أنّ السرّ في ذلك يعود إلى عموميّة الإثم إذ يشمل الخطيئة وغيرها؛ لذا أعاد الضمير عليه .

وممّا يلحق بهذه المسالة مجيء المرجع مثنى صناعياً ، بتقديم مفردة واحدة دالة على التثنية بزيادة علامة إعراب المثنّى ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأُخرى فقاتلوا التي تبغي حتّى تفيء إلى أمر الله ﴾ [٣] فأسند الفعل (اقتتل) إلى ضمير الجمع (الواو)، فقال : اقتتلوا، وحقّ المطابقة فيه أن يقول : اقتتلتا؛ لأنّ المرجع مثنى (طائفتان) ، ولكنه جمع الضمير باعتبار الطائفة مجموعة من الأفراد، وهي مسألة تدور في فلك الحمل على المعنى ، وممّا يقوّي ذلك قول الزمخشري : " فإنْ قُلْتَ : ما وجه قوله: (اقتتلوا) والقياس (اقتتلتا) كما قرأ ابن أبي عبلة ، أو (اقتتلا) كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو النفرين ؟ قلت: هو مما حمل على المعنى دون اللفظ ؛ لأنّ الطائفتين في معنى القوم والنّاس "[٤].

وتردّدت مسألة الحمل على المعنى في هذا الباب في الآية الكريمة ﴿ هذان خصمان اختصموا﴾ [٥]. فتقدّم المرجع المثنّى (خصمان) إلاّ أنّ الضمير العائد على المرجع جُمِع حملاً على المعنى؛ لأنّ المقصود بالخَصْم مجموعة أَفْراد، و لم يدلّ في معناه على الإفراد، فالخَصْم في معنى القوم والنّاس؛ لذا حُمِل الضمير في جمعه على معناه ، ولك أنْ ترى المطابقة في اسم الإشارة حيث قال : هذان، ولكنّه غَايَر عند إسناد الفعل إلى الضمير (اختصموا) وممّا يعزّز هذه المسألة قول العكبريّ : " واختصموا إنّما جُمِع حملاً على المعنى، لأنَّ كلّ فريق خصم ، والفريق فيه أشخاص " [٦].

٣. المرجع جمع، وضميره موحّد .

وممّا وُحِّد فيه الضمير ومرجعه جمع قوله تعالى : ﴿ ثُمّ قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدّ قسوة وإنّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار وإنّ منها لما يشقق فيخرج منه الماء ﴾[٧] .

فقال : (منه) والمرجع (حجارة) ، فغاير بينهما، ثم طابق فقال: (منها)، وداعي هذه المغايرة هو

(١) الفرّاء، **معاني القرآن** ، ١/٢٨٦.
(٢) الزمخشري، **الكشاف**، ١/٥٩٧، وانظر : ابن عطية، **المحرّر الوجيز**، ٤/٢٢٤، والعكبري، **التبيان**، ١/٣٨٨، وأبا عبيدة ، **مجاز القرآن**، ١/١٣٩ .
(٣) **الحجرات** : (٩) .
(٤) الزمخشري، **الكشاف**، ٤/٣٦٧.
(٥) **الحج** : (١٩).
(٦) العكبريّ، **التبيان**، ٢/٩٣٧، وانظر : الزمخشري، **الكشاف**، ٣/١٥٠، والأخفش، **معاني القرآن**، ٢/٤١٤.
(٧) **البقرة** : (٧٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحمل علـــى المعنى ، فذكّـــر الضمير، وأفـــرده حملاً على معنى (جَمْع) الحجارة ، وكلمـــة (جمـــع) مفردة ومذكّرة ، وقد ذهب الفرّاء في هذه المسألة إلى تعليلين يؤذنان بالحمل على المعنى " تذكير (منه) على وجهين : إنْ شئت ذهبت بهِ إلى أنّ البعض حجر وذلك مذكّر، وإن شئت جعلت البعض جمعـــاً في المعنى فذكّرته بتذكير بعض"(١).

ولكن صاحب المحرّر (٢) ذهب إلى أنْ عَوْد الضمير على (ما)، ولفظ (ما) من الوضعيّات المبهمة ، وكأنّ نَظَره قد قاده إلى إعادة الضمير على أقرب مذكور (ما) ، ومع هذا تبقى المسألة في قيد الحمل على المعنى وإنْ اختلفت وجهة النظر في تحديد المرجع .

و ثمّة آيات أُخر في لغة التنـــزيل ورد المرجع فيها جمعاً، ولكنّ العائد عليه جاء مفرداً في التذكير مـــرّة، وفي التأنيث أُخرى، إذ لم يلتزم في إفراد الضمير التذكير وحده دون التأنيث، بل جاءت المـــسألة قَـــسْماً مشتركاً بين التذكير والتأنيث ، قال تعالى : ﴿ حتّى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً سقناه لبلدٍ ميّتٍ ﴾ (٣).

فالضمير الموحّد المذكّر في الفعل (سقناه) عائد على مرجعه المجموع (السحاب)، وممّا يدلّ على مجـــيء السحاب جمعاً أنّه وُصِف بالجمع (ثقالاً) ، وأمّا توحيد الضمير فعلى توحيد المعنى في لفظ (الـــسحاب)، فالسحاب يحمل على معنى (ماء) لذا قال : سقناه، ذكر صاحب الكشاف " ثمّ أفرد الضمير للسحاب على اللفظ، ولو حمل على المعنى كالثقال لأنّث، كما لو حمل الوصف على اللفظ لقيل: (ثقيلاً)" (٤). ويبدو لي أنّه حمل السحاب على معنى (المطر) وفيه الخير بدليل ما جاء بعده (لبلد ميّت) ؛ لأنّ الـــسحـــاب هـــو (الغيم) سواءٌ أكان فيه ماءٌ أم لم يكن(٥) .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وإنّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم ممّا في بطونه ﴾(٦)، فقد صُرِف الـــضمير في قوله : (بطونه) إلى المفرد المذكّر على حين جاء المرجع جمعاً مقدّماً (الأنعام)، وكـــان حقّ المطابقـــة بين المرجع وضميـــره في لغـــة البشـــر أن يقـــول: (بطونها)، وقد التفت أبو عبيدة إلى هذه المغـــايرة بالقول : إنّ الأنعام يذكّر ويؤنّث (٧).

وقد استقصى هذه المسألة العكبريّ بالتبيان " إنّ الأنعام تذكّر وتؤنّث فذكّر الضمير علـــى إحـــدى

(١) الفرّاء، **معاني القرآن**، ١/٤٩.

(٢) ابن عطيّة، **المحرّر الوجيز**، ١/٣٥٦.

(٣) **الأعراف** : (٥٧).

(٤) الزمخشري، **الكشاف**، ٢/١٠٦، و انظر ابن عطيّة، **المحرّر الوجيز**، ٥/٥٤٠.

(٥) أنيس ، إبراهيم ورفاقه ، **المعجم الوسيط** ، دار الفكر ، د . ت ، مادة : (سحب) ج١/٤١٨.

(٦) **النحل** : (٦٦).

(٧) أبو عبيدة ، **مجاز القرآن** ، ١/٣٦٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللغتين، والثاني أنّ الأنعام جنس والثالث أنّ واحد الأنعام نَعَم والضمير عائد على واحدة ..... والسادس أنّه يعود على الفحل لأنّ اللبن يكون من طَرْق الفحل الناقة " [١].

ويبدو لي أنّها مسألة حملت على المعنى، إذ حمل الأنعام على معنى لفظ (جَمْع) وكأنّه أراد (جَمْعَ الأنعام) ولفظ (جمع) مفرد مذكّر ، لذا طابق الضمير العائد عليه (في بطونه) .

وممّا وَرَدَ في هذا السياق قوله تعالى : ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلدٍ ميّت﴾ [٢]، والقول فيه كسابقه، من أنّ المرجع المجموع (سحاباً) حمل على معنى (ماء) لذا أفرد الضمير، وذكّره في (فسقناه)، ويعزّز هذا قول ابن عطيّة : " فإذا أصابه الماء من السماء أخضر ونبت " [٣].

وأفرد الضمير العائد على الجمع المتقدّم المزيد بالألف والتاء في قوله تعالى : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً ﴾[٤]. فقال : (منه) والمرجع (ثمرات النخيل والأعناب)، وقد نبّه الأخفش على أنّ مردّ هذه المغايرة يعود إلى أنّها مسألة قائمة على الحذف، إذ حذفت كلمة (شيئاً)، وكأن الأصل " ومن ثمرات النخيل والأعناب شيئاً تتخذون منه" [٥].

وهذا نَظَرٌ معياريّ ينهض على التقدير البعيد، ونقل هذا الرأي العكبريّ " تتخذون صفة، لمحذوف تقديره شيئاً تتخذونه ..... وإن شئت (شيء) بالرفع وذكّر الضمير؛ لأنّه عاد على (شيء) المحذوف أو على معنى الثمرات وهو الثمر " [٦].

والرأي الثاني أقرب إلى الصواب، إذ حمل الثَمَرات على معنى (الثَمَر) لذا أفرد الضمير وذكّره على هذا المعنى في قوله: (منه)، وهي مسألة بيّنة في قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إنْ أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم مَنْ إله غير الله يأتيكم به ﴾ [٧]. فاختلف نظر المفسّرين في عَوْد الضمير، فذهب الأخفش إلى[٨] أنّ توحيد الضمير في (به) جاء لتوحيد المرجع (سمعكم) وأنْ لا مغايرة في الآية بين الضمير ومرجعه ، ونقل هذا الرأي النّقاش من أنّ التغليب ظاهر في هذه المسألة، إذ غُلّب السمع على غيره؛

(١) العكبريّ ، **التبيان** ، ٨٠١/٢، وانظر : الفرّاء، معاني القرآن: ١٠٨/٢، والزمخشري، **الكشاف**، ٥٧٤/٢، وابن عطيّة، **المحرّر الوجيز**، ٤٥٧/٨ .

(٢) **فاطر** : (٩)

(٣) ابن عطيّة، **المحرّر الوجيز**، ٢٢٠/١٢.

(٤) **النحل** : (٦٧).

(٥) الأخفش ، **معاني القرآن** ، ٣٨٣/٢.

(٦) العكبريّ، **التبيان** ، ٨٠١/٢، وابن عطيّة، **المحرّر الوجيز**، ٤٥٨/٨

(٧) **الأنعام** : ٤٦

(٨)الأخفش ، **معاني القرآن** ، ٢٧٥/٢.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لذا وحّد الضمير (به) " قال النقّاش : في الآية دليل على تفضيل السمع على البصر لتقدّمه هنا، ثمّ احتج لذلك بقوله : إنّما يستجيب الذين يسمعون " (١).

والذي أطمئن إليه في هذه المسألة أنّها محمولة علـــى المعنى ، فاتّحاد مرجع الأشياء المتقدمة (الـــسمع والأبصار) آذن بتوحيد الضمير (بـــه) أي بالعلم الناتج عن السمع والبصر، ويقـــوّي هذا ما ذهب إليه الفرّاء " وإذا كنّيت عن الأفاعيل وإن كثرت وحّدت الكناية كقولك للرجل : إقبالك وإدبارك يـــؤذيني وقـــد يقال : إنّ (الهاء) التي في (به) كناية عن الهدى(٢). وداعي الحمل على المعنى بـــيّن في مـــسألة المغايرة بين الضمير ومرجعه فـــي قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أظلـــــــــم ممّن ذُكّر بآيات ربّه فأعرض عنـــها ونسي ما قدّمت يداه إنّا جعلنا على قلوبهم أكنّة أَنْ يفقهوه ﴾(٣) ، إذ حمل المرجع المجموع (آيات) علـــى معنى القرآن (٤)، فوحّد معه الضمير في (يفقهوه) لأنّ القرآن مفرد ومذكّر .

٤. المرجع مفرد و الضمير جمع .

وممّا جاء على معكوس السابق في باب الاسم الموصول قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نـــاراً فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ (٥). فأفرد المرجـــع (الـــذي) وجمع الضمير في (بنورهم) و (تركهم) وكان وجه المطابقة أن يقال : (بنوره وتركه) ولهـــذا قـــال بالمطابقة في اللفظ في قوله : (حوله) فأفرد الضمير مع مرجعه المفرد ، بينما أوقعت المغايرة بين الاســـم الموصول المفرد والضمير المجموع، وقد جدّ المتأولون في بيان علة هذه المغايرة ، فيرى الأخفش (٦). أنّ مدار الأمر على المعنى ؛ لأنّ الاسم الموصول (الذي) بمعنى الجمع كما أنّ الإنسان بمعنى النّاس .

وهذا النَظَر نبّه عليه سيبويه من قبلُ في أثناء كلامه على الشاهد النحويّ(٧) :

وإنّ الذي حانت بفلج دماؤهم هُمُ القوم كلّ القوم يا أُمَّ خالد .

لأنّ (الذي) بمعنى (الذين).

وذهب بعض أصحاب النَظَر من المفسّرين واللغويّين إلـــى أنّهـــا مـــسألة محمـــــولة علـــى داعـــي

(١) ابن عطيّة ، **المحرر الوجيز** ، ٢٠٢/٥.

(٢) الفرّاء ، **معاني القرآن** ، ٣٣٥/١.

(٣) **الكهف** : (٥٧).

(٤) الزمخشري، **الكشاف** ، ٦٨١/٢.

(٥) **البقرة** : (١٧) .

(٦) الأخفش: **معاني القرآن**، ٤٩/١.

(٧) سيبويه ، **الكتاب**، ١٨٦/١، ابن جني، أبو عثمان (٣٩٢هـــ/٩٩٥م) **الخصائص**، تحقيق : محمد علي النجار، دار الهـــدى، بـــيروت ، لبنان، ط٢،١٨٥/١ . والزمخشري، **الكشاف**، ١١٠/١.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(التخفيف) ، إذ الأصل (الذين) ولكن حذفت النون بعدما طال الاسم الموصول مع صلته " والذي سوّغ وضع الذي في موضع الذين و لم يجز وضع القائم موضع القائمين، ولا نحوه من الصفات أمران : أحدهما أنَّ الذي لكونه وصْلةً إلى وصف كلّ معرفة بجملة، وتكاثر وقوعه في كلامهم، ولكونه مستطالاً بصلته حقيق بالتخفيف، ولذلك نهكوه بالحذف "(١).

ولست أميل إلى المذكور الأخير من قول الزمخشري من الحمل على الحذف؛ لأنّنا على هذا المذهب نفرّ من ثقيل لما هو أصعب منه، إذ لو كانت النون في نيّة الحذف في الاسم الموصول (الذين) فإنّ ذلك يعني أنّ ثمّة مطابقة بين المرجع (الذين) وضميره في (بنورهم، وتركهم)، ولكنّ هذا القول يحملنا إلى مغايرة أُخرى، إذْ وحّد الضمير في (حوله) مع الاسم الموصول الذي في نيّة الجمع (الذين)، وهذا يتطلب البحث عن علّة أخرى لهذه المغايرة .

وممّا يتراءى لي في هذه المسألة أنّ الاسم الموصول (الذي) حُمِل على الموصول الوضعيّ (مَنْ)، وهذا الأخير صالح للإفراد، والتثنية، والجمع ، والتذكير، والتأنيث ممّا يدفع إلى القول : إنّ توحيد الضمير في (حوله) يعود إلى الحمل على اللفظ المفرد ، وأنّ جمع الضمير في (تركهم) و (بنورهم) حُمِل على معنى الجمع في (مَنْ) وهذا ضَرْبٌ من التقارض بين الاسمين الموصولين (الذي) و (مَنْ) .

ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً. يبصّرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه﴾ (٢). فأفرد المرجع (حميماً) وأعاد عليه ضميراً مجموعاً في (يبصّرونهم) حملاً على اتّحاد المعنى في المرجع (حميماً) يعزّز هذا قول العكبريّ : " وَجُمع الضمير على معنى حميم "(٣). وقال صاحب الكشاف: " فإن قلت : لِمَ جُمِع الضميران في (يبصّرونهم) وهما للحميمين ؟ قلت : المعنى على العموم لكلِّ حميمين لا لحميمين اثنين "(٤).

ويلحق بهذه المسألة ألفاظ جاء لفظها مفرداً، وَرُدَّ عليها ضمير مجموع، وممّا يطالعنا في لغة التنزيل في هذا المدار الألفاظ (طائفة، وأمّة، وحزب، وفريق، وقرن، وَخَلْف، وذريّة) ومسألة المغايرة في هذا الجناب لا تعدو باب الحمل على المعنى ، قال تعالى : ﴿ ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلّون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ﴾ (٥).

فجمع الضمير في (يضلونكم) العائد على مرجعه المفرد المؤنث في اللفظ (طائفة) والطائفة من

(١) الزمخشري، **الكشاف**، ١/١٠٩، وانظر : ابن عطيّة، **المحرّر الوجيز**، ١/١٨٥، والسمين الحلبي، **الدّر المصون** ، ١/١٥٤.

(٢) **المعارج** : (١٠ ، ١١).

(٣) العكبريّ، **التبيان**، ٢/١٢٤٠، وانظر : الفرّاء، **معاني القرآن**، ٣/١٨٤.

(٤) الزمخشري، **الكشاف**، ٤/٦١٢.

(٥) **آل عمران** : (٦٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الناس والليل، أي : القطعة [١].

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أُمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾[٢] فذكر المرجع المفرد (أمة) وأعاد عليه ضميراً مجموعاً في (يدعون) باعتبار المعنى؛ لأَنّ الأمة في المعنى تعني مجموعة من الأفراد، و يعزز ذلك ما جاء في المعجم " وكلّ قوم نسبوا إلى نبيّ وأُضيفوا إليه فهم أُمّة ، وكلّ جيل من النّاس هم أمّة على حِدَة " [٣] ، لذا قال الأخفش : " أمّة في اللفظ واحد وفي المعنى جميع فلذلك قال : يدعون "[٤]. ونحو هذا في لغة التنـــزيل قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خَلْف ورثوا الكتاب ﴾[٥] فأفرد المرجع في اللفظ (خَلْف) وجمع الضمير في (ورثوا) باعتبار المعنى [٦]، لأنّ الخَلْف الجماعـــة مـــن الناس.

وقال تعالى : ﴿ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإنّ حزب الله هم الغالبون ﴾[٧] فقـــال : (حزب) بالإفراد وأعاد عليه الضمير المجموع (هم)؛ لأن الحزب يدلّ على مجموعة من الأفراد لهذا جمع الـــضمير باعتبار المعنى .

ومثل الحِزْب (الفريق) في قوله تعالى : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهمُ الـــضلالة ﴾ [٨] ، إذ جمـــع الضمير فـــي (عليهـــم) وأداره على المرجع المفرد (فريقاً) والقول فيه كالقول في سابقـــه مـــن[٩] أنّ الفريق طائفة من الناس ، فجمع في اللفظ حملاً على المعنى .

ومثل هذه المفردات ما جاء من أعلام القبائل، إذ أفردت في اللفظ، وجمع الضمير العائد عليها باعتبـــار المعنى، قال تعالى : ﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ [١٠].

فجمع الضمير في (أخاهم) العائد إلى المرجع المفرد (عاد)؛ لأنّ عاداً وإن كانت في اللفظ مفردة إلاّ أنّها في المعنى جمع، " فعاد اسم لحيّ يحمل الجمع إذ يطلق على أفراد كثيرين" [١١] ، ومثلها لفظ سبأ في قوله

---

(١) الفراهيدي، **العين** مادة : (طوف).

(٢) **آل عمران** : (١٠٤) .

(٣) الفراهيدي ، **العين** ، مادة : (أمم) .

(٤) الأخفش، **معاني القرآن** : ٢١١/١ .

(٥) **الأعراف** : (١٦٩) .

(٦) الفرّاء، **معاني القرآن** ، ٣٩٩/١، وانظر : الزمخشري، **الكشاف**، ١٦٤/٢.

(٧) **المائدة** : (٥٦) .

(٨) **الأعراف** : (٣٠).

(٩) الفراهيدي، **العين**، مادة : (فرق) . وانظر : ابن عطيّة، **المحرّر الوجيز**، ٤٨٠/٥ .

(١٠) **الأعراف** : (٦٥) .

(١١) ابن عطيّة ، **المحرّر الوجيز**، ٥٤٩/٥، وانظر : الزمخشري، **الكشاف**، ١١٣/٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وعن شمال ﴾[١] ، فسبأ عَلَمٌ على القبيلة[٢] ، وهذا العلم هو المرجع، وعائده المجموع (مسكنهم) والقول فيه كالقول في سابقه .

مسائل التذكير والتأنيث

تنبئ مسائل ظاهرة المغايرة في هذا الباب عن كون المرجع موحداً والضمير موحداً ، ولكنّ وجه المغايرة تمثّل في مسألة التذكير والتأنيث، إذ نقرأ في لغة التنزيل قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوّة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ [٣].

ويبدو للباحث أنّ المرجع جاء مجموعاً في التعاطف الذي توفّرت عليه الآية (الكتاب والحكم والنبوّة) لولا أنّ أصحاب النظر من المفسّرين قد نبّهوا على أنّ عَوْد الضمير المؤنّث في (بها) وقع على المرجع الموحّد (الكتاب) ، وحملوا هذه المغايرة – بين المذكر والمؤنث- على مَسْلك المعنى؛ لأنّ الكتاب ثمّة يحمل على معنى (الصحف) قال صاحب المحرّر : " والكتاب يرادُ به الصُحُف"[٤] ، وذهب الزمخشري إلى[٥] أنّ الكتاب بمعنى الجنس الدال على العموم .

وذُكر الفردوس، وهو لفظ مذكّر في القرآن الكريم، ولكنّ رجع الضمير عليه جاء مفرداً ومؤنّثاً، قال تعالى : ﴿ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[٦]. وتحمل هذه المغايرة على المعنى، فالفردوس حمل على معنى (الجنّة) لذا عاد الضمير مؤنثاً باعتبار معنى الفردوس المؤنث، يقوّي ذلك ما نصّ عليه المعجم اللغويّ " الفِرْدوس " جنّة ذات كَرْم " [٧] ، وقال الزمخشري : " أنّث الفِرْدوس على تأويل الجنّة " [٨].

وممّا ذكر فيه المرجع مفرداً مؤنثاً، وجاء ضميره مفرداً مذكّراً، قوله تعالى : ﴿ فإذا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دعانا ثمّ إذا خوّلناه نعمة منّا قال إنّما أوتيته على علم بل هي فتنة ﴾[٩]. فذكّر الضمير في (أوتيته) العائد على المرجع المؤنّث المفرد (نعمة) وجاء الضمير مذكّراً حملاً على معنى التذكير في (نعمة)؛ لأنّ النعمة بمعنى (المال) أو (الإنعام) والمال مذكّر، ويعزّز هذا ما ذهب إليه الزمخشري " فإن قلت : لم ذكّر الضمير

---

(١) **سبأ** : (١٥) .

(٢) ابن عطيّة ، **المحرّر الوجيز** ، ج ١٦٢/١٢ ، وانظر : الزبيدي ، **تاج العروس** ، مادّة (سبأ) ج١ / ٧٥ .

(٣) **الأنعام** : (٨٩) .

(٤) ابن عطيّة ، **المحرّر الوجيز** ، ٢٧٤/٥، وانظر : السمين الحلبي، **الدر المصون**، ٣٠/٥.

(٥) الزمخشري، **الكشاف**، ٤١/٢ .

(٦) **المؤمنون** : (١١) .

(٧) الفراهيدي ، **العين** ، مادة : (فردوس) .

(٨) الزمخشري ، **الكشاف**، ١٨١/٣، وانظر : الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، ٣٦٥/٣

(٩) **الزمر** : (٤٩) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في أوتيته وهو للنعمة ؟ قلت : ذهاباً به إلى المعنى، أي : شيئاً من النعم أو قسماً منـــها " [١]، ويمكـــن أنْ تكون النعمة بمعنى الخير، وقد تختلف عبارة المفسّرين إلاّ أنّهم متفقون في الغالب على مسألة الحمل علـــى المعنى .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ [٢]. فالمرجع مؤنّث موحّد (تذكرة) قد تقدّم في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿ كلاّ إنّها تذكرة ﴾ [٣]

وذهب المفسّرون إلى أنّ (التذكرة) بمعنى (الذكر أو الوعظ) [٤] و المقصود في الآية القرآن الكريم؛ لذا جاء رجع الضمير عليها مذكّراً؛ لأنّ المقصود هو المعنى دون اللفظ، وجاء معكوس هذه المسألة في قولـــه تعالى : ﴿ كلاّ إنه تذكرة ﴾[٥] إذ جاء الضمير مذكّراً ، والمرجع المؤنّث متأخراً، وحملت التذكرة على معنى (الذكر والوعظ) [٦] والمقصود هنا القرآن الكريم ؛ لهذا ذُكّر الضمير المتقدم على المعنى دون اللفظ .

الخاتمـــــة :

١. إنّ جملة القول تكمن في أنّ مسألة المغايرة بين الضمير ومرجعه في لغة التنـــزيل لم تكن اعتباطاً، وإنّما سارت على سَمْت العربيّة، إذ استدعاها متطلّب المعنى، ولكن لا يجوز لنا أَنْ نقيس عليها؛ لأنّ ذلـــك يؤدي إلى فوضى الاستعمال اللغويّ، فهي مقصورة على ما سُمِع عن العـــرب ، ومـــا ورد في لغـــة التنـــزيل.
٢. وقد بدا بيّناً أَنّ مسألة العَدَد (إفراداً ، وتثنيّة، وجمعاً) قد استأثرت بمسائل هذه الظاهرة أكثـــر مـــن مسائل التذكير والتأنيث؛ لأَنّ مسألة العَدَد في هذا المدار واضحة، أمّا التذكير والتأنيث فهي مـــسألة غامضة وقلقة، إذ ليس هناك حدّ فاصل في كثير من الأحيان بين التذكير والتأنيث في الألفاظ المجازيّـــة على وجه الخصوص، زدْ على ذلك أَنّ ما يستعمل عند قبيلة بالتذكير قد يـــستعمل عنـــد غيرهـــا بالتأنيث، وقد أُفردت مصنّفات لهذه المسألة .

وظهر بيّناً أنّ مسائل هذه الظاهرة لم تقتصر على سورة دون أخرى، وإنّما جاءت متنـــاثرة في لغـــة التنـــزيل دون نظر إلى طول السورة أو قصرها .

---

(١) الزمخشري ، **الكشاف**، ١٣٦/٤، وانظر : ابن عطيّة، **المحرّر الوجيز**، ٥٤٩/١٢، والسمين الحلبي، **الدّر المصون**،٤٣٢/٩ .
(٢) **عبس** : (١٢) .
(٣) **عبس** : (١١) .
(٤) الفرّاء، **معاني القرآن**، ٢٣٦/٣، وانظر : ابن عطيّة ، **المحرّر الوجيز**، ٣٢٠/١٥، والعكبري، **التبيان**، ١٢٧١/٢.
(٥) **المدثر** : (٤ ، ٥) .
(٦) الأخفش، **معاني القرآن** ، ٥١٦/٢ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com